مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الضُّحَى

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الضحى

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الضحى

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

استهل الله تباك وتعالى سورة الضحى بالقسم. حيث أقسم عَزَّ وجل بالضحى ثم بالليل. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ أي: والضحى الذي هو صدر النهار وأصله. ثم عطف عليه القسم بالليل. فقال الله تبارك وتعالى ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: والليل إذا أقبل وحل، وأظلم. فقد جمعت دلالة ﴿سَجَىٰ﴾ أحوال الليل. حيث قيل: إذا أظلم، وقيل: إذا ذهب، وقيل: إذا أقبل. وقيل: إذا امتد ظلامه. وقيل: إذا سكن[١] والسكون هو استقرار الظلام، وسكون الخلق. والتي يلفت فيها البيان الكريم إلى نعمة النهار بظهوره، وتخصيص وقت ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ باعتباره مطلع أول النهار، وما تميز به من لطافة وقته. وشروع وابتداء الإنسان في تحقيق مطالبه ومراده، من الكدح في الحياة، والسعي في مناكب الأرض على ما يريد ويبتغي. ثم أقسم تبارك وتعالى بالليل وظلامه وسكونه، وراحته وهدوئه الذي يسكن فيه الخلق للراحة، واستعادة قواهم، حيث يستقر فيه الظلام بسكونه وهدوئه، فكل منهما نعمة قائمة بذاته.

فهما نعمتان عظيمتان، إذ تتحقق بهما منافع الناس من الكدح وطلب الرزق في النهار، والراحة والسكون وقت ظلمة الليل إذا سجى. فيستثير القرآن الكريم بالدلالتين نعمتين عظيمتين ومتضادتين، وكذلك في وقتين متضادين. وكل منهما مرتبط بنوع من مطالب الإنسان. فالليل مضاد للنهار، والعمل مضاد للسكينة والحركة، الراحة والسكينة تحتاج إلى الليل، والعمل والكدح يحتاج إلى نور النهار. بما يظهر به عظيم تدبير الله تعالى لهذا الإنسان، ولهذا الكون، ليحصل الانسجام والتوافق بين المطلبين المتضادين بوقتين مماثلين لهما في التضاد. بما يظهر به عظيم تدبير الله تعالى لهذا الكون من أجل هذا الإنسان. فإن الذي دبر هذه الأوقات وهذه الحالات

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢٦٧-٢٦٨)

لعظيم في ذاته، وعظيم في خلقه، وعظيم في تدبيره. فاستوجب من العباد شكره بالقلب والاعتقاد، وباللسان، وبالطاعة والامتثال لدينه القويم.

ومن الفوائد البيانية أن دلالة ﴿سَجَىٰ﴾ تعطي معنى التغطية، لتفيد الستر، كما يستتر الإنسان بثيابه، وأعطت دلالة ﴿إِذَا﴾ الحين والوقت، الذي يسجي فيه الليلُ الكونَ بظلامه، فيتحقق به للناس مبتغاهم ومرادهم. وأعطت دلالة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ انفراج النور وظهوره بعد ظلمة الليل وسواده، بما يثير الذهن نحو عظمة هذا التدبير بالتغاير العظيم. الذي يستوجب الخضوع للخالق بما أمر، وأنه قادر على كل شيء، ومن ذلك اليقين بالغيب، من البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار. فإن حقائق المشاهد تدل على حقيقة الغيب بالقياس. بلا شك ولا ريب.

ثم ذكر سبحانه وتعال جواب القسم، فقال عَزَّ وجل مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ما فارقك ربك وما أبغضك. فقد اشتمل جواب القسم على نفي أمرين عظيمين، بما أثبت بهما ضديهما: وأولهما قوله عَزَّ وجل ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي: ما فارقك وما تركك ربك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. وثانيهما ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضك.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ العناية بالرسول عليه الصلاة والسلام، وأن لله تعالى الحكمة البالغة في التأخير والتعجيل وفي المتابعة، بل وفي كل شأن يقدره عَزَّ وجل. كما أفادت دلالة نفي التوديع ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ونفي البغض ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ إثبات أضدادهما للرسول صلى الله عليه وسلم. فقد أثبت قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ معيته وعنايته سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم فيما مضى، وفيما هو قادم، ومن عظيم العناية والتبجيل له صلى الله عليه وسلم أن خاطبه الله تعالى بدلالة الربوبية ﴿رَبُّكَ﴾ فورد البيان بأن نسب اللهُ عَزَّ وجل رسوله إلى ربوبيته صلى الله عليه وسلم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ لإفادة المكانة والحظوة بهذا الخطاب البياني، وبهذا التخصيص الرفيع من رب العالمين.

كما أفادت دلالة ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ نفي جميع درجات البغض، بما يُثبت كمال المحبة من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم. كما ورد النفي بصيغة الماضي، ليفيد السبق في ذلك، أي: منذ أن خلقك، ولن يحصل لك من ربك إلا المحبة، مما يفيد الكمال البشري للنبي صلى الله عليه وسلم في طاعته لربه عَزَّ وجل، والتي

منعت عنه صلى الله عليه وسلم بغض وترك ربه له عَزَّ في علاه. مما يبين عظيم منزلته صلى الله عليه وسلم، والحفاوة من ربه به عَزَّ وجل. اللهم صل وسلم على نبينا محمد، واللهم اجمعنا به في الآخرة يا رب العالمين والمسلمين أجمعين، بمنك وفضلك وجُودك وكرمك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

وقال أهل التفسير بأن هذه السورة نزلت عندما أبطأ الوحي عن الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، قول ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لَمَّا نزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ابطأ عنه جبريل أياماً. فقال المشركون: ودَّعَهُ ربه وقلاه، فأنز الله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[1] وهذا القول منهم يوضح ويبين متابعة المشركين للوحي، وما ينزل من القرآن العظيم على الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن الكريم قد شد انتباههم، فأخذوا يتابعون ما ينزل منه، بل وأيقنوا بأنه من عند الله تعالى، ولذلك قالوا: ودَّعَهُ ربه وقلاه. ولكن المانع لمن بقي على كفره هو الاستعلاء والحسد. مما يبين خطر الحسد والاستكبار، فإنه يمنع الإنسان عن قبول الحق والرضى به. مما يتطلب معالجة الإنسان لنفسه، حتى يكون متواضعاً لقبول الحق، وعدم مناكفته ومعارضته بالباطل.

وبعد أن أوضح وبين سبحانه وتعالى مكانة رسوله صلى الله عليه وسلم ومنزلته في الدنيا بما سبق من البيان يخبر الله عَزَّ وجل مباشرة بمنزلة ومكانة رسوله صلى الله عليه وسلم في الآخرة، فقال تعالى ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ وإن الدار الآخرة خير لك وأفضل من هذه الدار. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند وفاته كما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (اللهم الرفيق الأعلى) فقلت إذاً لا يختارنا. وقالت أيضاً رضي الله عنها: فكان آخر كلمة تكلم بها: (اللهم الرفيق الأعلى) ثم قال (في الرفيق الأعلى) ثلاثاً، ثم قضى[2] مما يبين كمال رضاه بآخرته التي هي خير له من الدنيا كما قال الله تعالى له عليه الصلاة والسلام.

ومن فوائد الدلالات البيانية أن المقارنة بين الحياتين وردت بصيغة المفاضلة والتفضيل، فقال عَزَّ وجل ﴿ خَيْرٌ لَّكَ ﴾ أي: أفضل لك. وفي هذا دليل على أن الدنيا كانت له صلى الله عليه وسلم خير كبير وعظيم، والآخرة أعظم خيراً، إذ كان صلى الله عليه وسلم في الأولى رسولاً نبياً، بل خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام، وما سيناله صلى الله عليه وسلم من أجور وثواب من اتبعه إلى يوم القيامة. كما كان له من ثواب جهاده وفتوحاته، وما بدد وأزال به من ظلام الجاهلية والشرك، والظلم والفساد، وأحل برسالته الدين والتوحيد، والأمن ومكارم الأخلاق، وقد سدده سبحانه وتعالى ونصره، ورفع مكانته في الدنيا إلى أن تقوم الساعة. فأفاد

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٤٨٧)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٤٣٨)

قوله تعالى ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ أن الدار الأولى كانت له خير، والآخرة كانت له أفضل من الأولى. مما يبين ويفيد قياساً على ذلك أن المؤمن الصادق العامل تكون آخرته خير له من دنياه. ونسأل الله تعالى خير الدنيا والآخرة، وأن تكون آخرتنا خير لنا من دنيانا.

ومن جماليات ودقائق البيان أن قوله تعالى ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ أوضح بها أن حياة الإنسان مرتين: المرة الأولى في الدنيا، والمرة الثانية: هي الأخيرة، وهي الآخرة، حيث سماها الله تعالى بالآخرة للتناسب مع الأولى. وبالتالي فإنه ليس بعدها ممات. بل هي الحياة الباقية الدائمة. وسمى الحياة الدنيا بالأولى، ولم يسمها بالدنيا، لأنها الأدق معناً ودلالة مع دلالة الآخرة. مما يبين ويفيد دقة الألفاظ والبيان في القرآن العظيم، وقوة بلاغته العميقة.

ثم أكد الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم تلك الخيرية بإتمام كمال رضاه عليه الصلاة والسلام في الدار الآخرة. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ فإن ربك سيعطيك حتى تحصل على تمام ما يرضيك مما تحب. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يُرضيه في أمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر، الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه من مسك[١] قال علي والحسن رضي الله عنهم: الشفاعة في أمته حتى يرضى[٢] وقد ورد الرضا عاماً، ليشمل كل ما يتمناه ويرضيه عليه الصلاة والسلام.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى عظيم عنايته ورعايته واصطفائه بجميع أوجه الرعاية التي تبين محبة الله تعالى وعنايته برسول صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾ ألم تكن أيها الرسول يتيماً فجعل لك من لدنه مأوى تأوي إليه. حيث توفي والده وهو حمل في بطن أمه، وقيل بعد مولده، ثم توفيت أمه وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي، وله من العمر ثمان سنين. ثم كفله عمه أبوطالب، بتسخير من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، فأحاطه برعايته، والذب والذود عنه بعد بعثته عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين سنة من عمره صلى الله عليه وسلم[٣] وكل ذلك بقدرة الله تعالى وتوفيقه وتقديره العظيم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٥٨/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٦٨/٨)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٥٩/٤) خالد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (١٢)

مما يبين عظيم عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم في جميع مراحل عمره، وبما يفيد أن على المؤمن أن يفوض أمره وأمر أولاده إلى الله سبحانه وتعالى، بعد أن يستقيم هو على منهج الله تعالى، ويربيهم على ذلك، فإنه سبحانه وتعالى هو الذي يدبر شؤون العباد، وهو الذي يتولى الصالحين ويرعاهم، بما يهيئ ويسخر لهم من لأسباب التي تجعلهم في أحسن حال.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظيم امتنانه على رسوله صلى الله عيه وسلم بالهداية، فقال الله تعالى مخاطباً نبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ فقد كنت لا تعرف شيئاً عن الدين الصحيح، ولا الكتاب، ولا الإيمان، فهداك بفضله، فلم يجعلك تعبد صنماً وأنت بين أناس يعبدون الأصنام، وأبعدك وصانك عن أفعال أهل الجاهلية المنكرة، فلم تسجد لغير ربك، ولم تُرَ عورته، ولم يسمع لهواً قط[1] ثم أتم له هذه الهداية بالنبوة والرسالة، ونزول القرآن العظيم عليه صلى الله عليه وسلم. فكان مهتدياً وهادياً، ومبشراً ونذيرا. فعصمه الله تعالى بهدايته قبل البعثة، ثم كان هادياً لغيره بدين الله تعالى وأخلاق الإسلام وفضائله العظيمة والكثيرة.

ثم ينتقل الامتنان من الله تعالى إلى بيان الرعاية الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ فقد كنت ﴿ عَآئِلًا ﴾ أي: فقيراً ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ أي: فرزقك الحلال، ليشمل ما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم من رعي الغنم لأهل مكة بأجرة منهم له، ثم العمل في تجارة خديجة رضي الله عنها. لتصبح زوجة له عليه الصلاة والسلام، فأغناه بها. وأغناه بما أعطاه وهيئه له في حياته الدنيا، وأرضاك ربك عَزَّ وجل بما منحك وأعطاك من القناعة، فلم تكن متشوفاً لغيرك. بل كان عليه الصلاة والسلام ينفق ما عنده من المال بعد الغزوات، ولا يدخر لنفسه شيئاً. مما يدل على قوة الغنى النفسي، المبني على قوة التوكل على الله تعالى، مع الزهد في الدنيا. بما يبين ويُعَلِّمُ بهذا البيان الكريم من الله تعالى كيف كان حاله صلى الله عليه وسلم، وعناية الله تعالى به في كل شأن وأمر. وبما يستوجب أن على المؤمن أن يتأمل في سيرته صلى الله عليه وسلم، فإنه سيزداد بها إيماناً وصلاحاً واقتداء. كما يغرس هذا البيان في المؤمن التوكل على الله تعالى، بما يرى من تدبيره وعناية العظيمة بخلقه، جَلَّ جلاله.

ثم بعدد تِعدَاد جليل النعم من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، ينتقل البيان إلى مكارم الأخلاق التي يجب أن يأخذ بها عليه الصلاة والسلام، وأمته تبعاً له في ذلك. بل هو توجيه من الله تعالى للأمة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فأما من كان يتيماً فلا تُلحِق به القهر، فتحقره بسبب يتمه، أو تقهره باستضعافه في ماله وشأنه بسبب قلة حيلته وضعفه وجهله.

---

(١) خالد بن حامد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (١٩)

وقد أفادت دلالة ﴿ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴾ المغالبة والغلبة والإذلال الذي يجعله يشعر بالدونية والهزيمة أمام من قهره في حق له. وهو توجيه من الله تعالى للأمة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يبين عظمة الإسلام في أخلاقه، ورعايته لليتيم، حتى قال صلى الله عليه وسلم (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وقال بأصبعيه: السبابة والوسطى)[١] وفي تخصيص اليتيم دون غيره، على اعتبار ضعفه، وعجزه، فَغَلَّظ شأن قهره وظلمه والإساءة له. وأنه يجب العناية والاهتمام به. مما يبين ويفيد ارتقاء الإسلام بالمؤمنين في كل جانب من جوانب الحياة.

ثم بعد نهي الله تعالى عن سوء التعامل مع اليتيم، عطف عليه ما يخص السائل، الذي يسأل عما يحتاج إليه من المال أو الطعام لفقره، أو غير ذلك من أوجه المسألة. فقال الله تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾ وأما الذي يأتيك سائلاً شيئاً فلا تقابله بالزجر واللوم والطرد. بل اقض حاجته إن كانت له حاجة، وأطعمه مما عندك، ومما تستطيع عليه. ومن دقائق السياق الكريم أن أورد البيان ﴿ ٱلسَّآئِلَ ﴾ مطلقاً، ليستوعب ويشمل جميع أنواع السؤال، سواء كان سؤال استعلام عن علم، أو سائل يسأل عن طريق، فتكون مشغولاً بأمر، فتزجره، أو سائلاً لطعام ونحوه، فتزجره. وقد أفادت دلالة ﴿ تَنۡهَرۡ ﴾ جميع أنواع وأساليب النهر، ودرجاته. وهذا النهي أعطى وجوب حُسن التعامل معه، بأوجه الإحسان التي يقدر عليها المسؤول. فاستوفت الدلالة جميع الأوجه بأحسن وأكمل بيان. وقد كان صلى الله عليه وسلم أحسن وأكمل الناس مع السائل، ومع اليتيم. وسيرته صلى الله عليه وسلم مليئة بمواقفه العظيمة والكثيرة. التي تربي المسلم على منهج الرحمة.

ثم يتدرج البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى منهج الإعلام والإخبار بالنعمة. فقال الله تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ أي: وأما بما أنعم الله تعالى به عليك من النبوة والوحي والقرآن فحدث به غيرك، ليعلموا ويتفقهوا في دين الله تعالى. وفي دلالة النعمة ثلاثة أقوال: أحدها: القرآن، والثاني: النبوة. والثالث أنها عامة في جميع الخيرات[٢] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: انشر ما أنعم الله به عليك بالشكر والثناء، والتحدث بنعم الله تعالى، فإن الاعتراف بها شكر. وعن مجاهد في المقصود بالنعمة أنها: بالقرآن. وعنه قال: النبوة، أي: بلغ ما أُرسلت به. قال القرطبي: والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والحكم عام له ولغيره. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهم: إذا أصبت خيراً أو عملت خيراً، فحدث به الثقة من إخوانك[٣] مما يبين أهمية نشر العلم، وأن لا يكتمه صاحبه، بل ينشره، ويتحدث بهذه النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليه، حتى يعم

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٠٠٥)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢٧٠)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٦٩)

وينتشر نفعها بين الناس، وكذلك من فقه شيئاً من أمور النفع في أمور الحياة أو أمور الآخرة فلينفع الناس بها، فيتحدث إليهم عنها، لتشمل دلالة قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ جميع أمور الحياة ومجالاتها، من الدين وعموم العلوم والمعارف، والخبرات، حتى ينتشر الخير بين الناس. وكذلك من أنعم الله تعالى عليه بنعمة، ورأى أن في الإخبار بها نفع للناس فعليه أن يخبر بها على سبيل نشر الخير، وليس على سبيل التباهي والرياء، والسمعة. مما يبين عظيم نعمة منهج الله تعالى في جميع شؤون الفرد والمجتمع. فنحمد الله تعالى على هذه النعمة، وأن يوفقنا لشكرها والعمل بها.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الضحى. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.